

## من تاريخ الطب الاسلامي

لصاحب السعادة الدكتور قاسم غنى

سفير إيران بمصر

- ٢ -

-----

٣ - تعريب الكتب الطبية :

ظهر الدين الإسلامى فى أوائل القرن السابع الميلادى وفى خلال سنوات قليلة قهر المسلمون الامبراطوريات وامتد نفوذ الإسلام إلى البلاد الواقعة فى ما بين الهند والقوقاز وعمها جميعاً ، ثم بلغ أفريقيا الشمالية وأسبانيا حتى بعض جزر بحر الروم مثل صقلية وسردينيا وغيرها .

وانقضى القرن الأول من الهجرة بالفزوة والفتح وتأسيس الحكومات العربية العظيمة فاستولى المسلمون على بلاد كانت مراكز للحضارة ، ودخلت بلاد ، كانت تمتد حواضر للعلوم والفنون مثل دمشق وقصرية والاسكندرية فى حيازتهم ؛ وفى أثناء هذه الفتوح وعندما كان المسلمون مشغولين بتدعيم أسس ممالكهم أدركوا أن من المحتم عليهم أن يقتبسوا من حضارات البلاد المفتوحة والأمم الغالبة ما يمكن اقتباسه ، فبدأوا بذلك وبلغت هذه الفكرة شأوها بوجه خاص فى عهد الخلفاء العباسيين حينما كان للإيرانيين شأن كبير فى إدارة أمور المملكة الإسلامية ، فالحق بكل مسجد مدرسة ، وأنشئت مكتبات ، وأسست مستشفيات ، وبدأوا فى تدريس جميع العلوم ولا سيما علوم الشريعة والطب والفلسفة فى مدارسهم .

قلنا إن النسطوربيين وحكاه الاسكندرية الذين سبقت لهم الهجرة إلى المشرق ثم اليهود والأنباط والسراني كانوا قد هياؤا مقدمات هذه النهضة الفكرية قبل بدئها بقرنين ولا سيما السريان منهم وهم من أبناء عمومة العرب ، وذلك بنقل علوم اليونان من السريانية إلى العربية . وسنذكر فيما بعد لحة عن الترجمة عند العرب يمكننا أن نقسم المسلمين الذين اشتغلوا بالعلوم المختلفة ومنها للطلب إلى طبقتين : الترجمين والمؤلفين .

فالترجمون منهم كانت براعتهم مقصورة على القيام بالترجمة ، وكانوا يتقنون اللغة العربية كما يتقنون السريانية أو اليونانية أو كلتيهما فيقومون بترجمة العلوم من إحدى هاتين اللغتين إلى العربية وكان هذا كل عملهم .

أما المؤلفون فهم الذين كانوا قد درسوا كل المؤلفات والآثار المترجمة وكان لهم بحت ونظر وآراء خاصة حول مادرسه وتآليف ظهرت فيها شخصياتهم العلمية بصورة واضحة . كان بعضهم يدخل ضمن كتا الطبقتين مثل يعقوب الكندى فى الفلسفة ، ويوحنا بن ماسويه وحنين بن اسحق فى الطب ، فإنهم مترجمون كما أنهم فى الوقت نفسه مؤلفون وأصحاب نظر ورأى خاص . فقد كان حنين بن اسحق ( ويسميه مترجمو اللغة اللاتينية فى القرون الوسطى يوهاننيتيوس yohannittius ) من نصارى الحيرة وكان فى شبابه يبيع العقاقير الطبية ويدرس الطب فى نفس الوقت على يوحنا بن ماسويه . وبروى أنه أتى على أستاذه يوما فى مجلس درسه كثيراً من الأسئلة مما أثار غضب الأستاذ ، فقال له ما لأهل الحيرة وللطب ؟ كان الأجدد بك أن تطوف بأزقة الحيرة وتصرف النقود فتألم حنين من كلام أستاذه وآلى على نفسه أن يتعلم اليونانية ليستغنى بها عن أستاذه فى تعلم الطب ، وقد أتقنها ثم عاد إلى جند يسابور وبرز فى فنه حتى عد من طراز جبرائيل بن يحيى بن يوحنا وابن ماسويه وأضرابهما أى أنه يدخل ضمن الطائفتين المؤلفين والترجمين .

وكان خالد بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان أول أمير من بنى أمية اهتم بعلوم اليونان اهتماماً خاصاً حتى لقب ( بحكيم آل مروان ) فقد جمع هذا الأمير نظراً لشغفه بكشف أسرار الكيمياء . حكاه اليونان المقيمين فى مصر فى رحابه وطلب إليهم أن يعربوا المؤلفات اليونانية والمصرية عن أكسير الكيمياء من اللغتين اليونانية والقبطية ، وهذا حسب ما يعتقد ابن النديم أول نقل فى الإسلام من لغة إلى لغة .

يقول برتلو Marcelito Berthelot فى مؤلفه عن تاريخ الكيمياء فى القرون الوسطى : ( كان جل هم الكيمياء والحصول على الأكسير الأعظم وحجر الفلاسفة ، غير أنهم خلال تجاربهم للوصول إلى هدفهم هذا وفقوا لاكتشافات كبيرة فى الكيمياء

إلا أن النظر والرأى ظاهران بصورة جلية في مؤلفاتهم . وتجذب فيها أحيانا نقداً لآثار القدماء ومؤلفاتهم ، فترى الأطباء المسلمين يقومون بتجارب جديدة في الطب ، وتراهم يطبقون تعاليم طبية مفيدة على المرضى في المستشفيات كما ترى منهم شيئاً كثيراً من الابتكار والابتداع ولا سيما في طرق العلاج واستعمال الأدوية والمعاقير . وقد ترك علماء هذا العهد مؤلفات كثيرة قيمة في هذا الصدد .

وفي هذا العهد ترى الرازي يبدي شكوكا على أقوال جالينوس كما ترى ابن سينا ينتقد فلسفة المشائين في مقدمة مؤلفه حكمة المشركين . وفي هذه العصور أصبحت الأندلس وبغداد من مراكز الطب المهمة حتى قيل إنه كان في مكتبة قرطبة وحدها ثلاثمائة ألف مجلد في مختلف العلوم والفنون .

ويختلف حكم الناس بالنسبة للخدمة التي أسداها المسلمون لعلم الطب؛ ففريق يعتقد أنه لو لم توجد الحضارة الإسلامية لصاعت آثار بقراط وجالينوس وأمثالهما في ظلام القرون الوسطى ونحسرها العالم إلى الأبد ، وإن بقاء هذه الآثار العلمية والمؤلفات كان بفضل وجود المسلمين واهتمامهم بها ، وإن هذا التراث العلمي العالي لم يسلم بفضلهم من الفناء والضياع فحسب ، بل أضيف إليه الشيء الكثير .

ولاضعف المسلمون فيما بعد وخرج كثير من البلاد كالأندلس من يدهم كان خيرا ما تركوه لأخلافهم ذلك التراث العظيم من العلوم والفنون .

هذا رأى فريق ، غير أن فريقاً آخر يرى ، ورأى معظمهم نائياً عن الجهل أو الفرض أو التمسب ، أن خدمة المسلمين للطب ليست بذات بال ، فإن هذا التراث العلمي بقي مدة كأمانة لدى المسلمين ورجال الكنيسة ، لكنهم لم يضيفوا إليه شيئاً من عندهم حتى جاءت النهضة الأوروبية فنسله منهم رجال ذلك العهد واستعادوا منه . والحق وسط بين هاتين العقيدتين المتضادتين التطرفتين ، فلا ريب أنه لو لم يتم المسلمون — بجمع آثار التقدمين من العلماء وترجمتها ونقدها وشرحها وتفسيرها بتلك الدقة المظيمة لصاح الشيء الكثير من آثار اليونان العلمية . وخير شاهد على ذلك أن كثيراً من مؤلفات اليونان في الطب قد ضاعت نسخها الأصلية

ولا تزال المصطلحات الكيميائية التي وضعها العرب مثل الكحول — والأنيق — وغيرها متداولة في جميع اللغات الأوروبية تشهد بما كان للعرب في هذا الفن من سابقة وفضل ) .

وهناك أمر هام أرى لزاماً على أن أشير إليه وهو أن لوكلارك Leclerc بشير في مؤلفه ( تاريخ طب العرب ) إلى أنه يعتقد أن مبدأ تاريخ اقتباس العرب من علوم اليونان يجب أن يرجع إلى ما قبل زمن خالد بن يزيد بمائة سنة أي أنه يعتقد أن تاريخ فتح مصر يجب أن يعتبر مبدأ لعهد اقتباس العرب من علوم اليونان ؛ فإن يحيى النحوى وكان من ملازمى عمرو بن العاص وخواصه هو نفسه — حسب معتقد لوكلارك — يوحنا فيلوبونوس John-Philoponus شارح كتب أرسطو وكان في الأصل من الفلاسفة اليونانيين وقام بترجمة بعض المؤلفات اليونانية إلى العربية بعد إسلامه . ويشير ابن النديم في الفهرست ضمن ذكر أسماء مؤلفاته ومقالاته إلى أنه قام بشرح بعض مؤلفات جالينوس الطبية .

وعلى أى الأحوال فإن من المسلم به أنه قد ترجمت في زمن خالد بن يزيد بن معاوية كتب في الكيمياء والطب وعلوم أخرى من اليونانية .

وبذكر ابن النديم مترجماً باسم ( اسطفن القديم ) ويقول إنه قد ترجم كتباً في الصنعة أى الكيمياء وغيرها إلى العربية لخالد بن يزيد . وكانت هذه الحقبة مقدمة لظهور العلماء أصحاب الرأى والنظر .

ففي عهد الترجمين في القرن الأول الهجرى أو بعد ذلك بقليل كانت تراجم كتب الطب وسائر العلوم من اليونانية مزيجاً من الأصل المترجم عنه مع عادات المسلمين ومبادئ الصحة في الإسلام ، ونادراً ما نجد طبيباً مسلماً يبدي رأياً أو نظراً خاصاً ، بل كانوا على الأغلب الأعم يسيرون على النهج الذى سار عليه القدماء في حين أننا نجد في العصور التالية أى في عصور النهضة العلمية الإسلامية علماء كباراً تجاوزوا مرحلة الترجمة والتتلمذ فكان لهم استقلال في الرأى والنظر . ومع أن أساس معارفهم مقبوس وماخوذ من علوم اليونان — ومع أنهم معروفون بفضل بقراط وجالينوس اللذين يذكرون دائماً اسميهما بكل تبحر واحترام —

ترجمها ابن القفيع إلى العربية، وكتاب في الطب أيضاً لثيادوسوس<sup>(١)</sup> (Théodoseus) الطبيب الخاص لساوير الثاني عمر من الفارسية وقد كانت للإيرانيين أثر واضح في الطب بصفة خاصة عن طريق مدرسة جنيد يسابور. فبرغم أن أساس التعليم الطبي في تلك المدرسة كان الطب اليوناني إلا أنه قد اصطبح بصبغة إيرانية بالتدريج، وكان للفريجة الإيرانية أثر كبير ونفوذ عظيم في منهج التعليم بها.

وقد ترجمت كتب أخرى من اللغات الهندية والقبطية إلى العربية ذكر ابن النديم كثيراً من أسماء وأسماء الذين قاموا بتعريبها.

(١) واسم في الكتب العربية تياذوق

ولم يبق منها إلا ترجمتها العربية مثل الكتاب السابع من التشریح لجالينوس؛ فالوجود منه الآن - هو ترجمته العربية ليس غير. زد على ذلك أن بعض الأطباء من المسلمين قد أسدوا إلى عالم الطب خدمات عظيمة ولاسيما في الطب العملي والجراحة؛ وقد برز كثير منهم في هذا المجال أمثال علي بن العباس الجومسي الأهوازي وأبي القاسم بن خلف الزهراوي.

فإن لم نقل إن كل ما وجد في القرون الوسطى من علوم الطب كان بفضل الأطباء المسلمين فلا أقل من انصافهم بذكر الحقيقة وهي أن الطب في القرون الوسطى مدين للطب الإسلامي والأطباء المسلمين ديناً عظيماً.

والذين يقصرون فضل حفظ التراث العلمي القديم على العرب فحسب مبالغون في قولهم هذا كذلك؛ فهؤلاء يقولون أنه لولا المسلمون لانقطعت الصلة تماماً بين النهضة الأوروبية والمسلمون اليونانية القديمة. وليس ما يقولونه كل الحق فإن قسطاً عظيماً من الكتب العلمية اليونانية كانت موجوداً في أديرة المسيحية، وقد درسها وبحث فيها عدد من رجال العلم وحفظوا للعالم علوم اليونان وطرائق بحثهم ودراساتهم العلمية.

وأهمية الطب الإسلامي تقتصر على أنه كان طوال قرون عديدة أي منذ انحطاط الحضارة والمسلمون عند اليونان إلى زمن النهضة الأوروبية أهم مصادر علوم اليونان وأصدقها. ولا يفتأ أن تذكر هنا أن الطب الإسلامي كسائر العلوم التي انتشرت بين المسلمين - وإن كان معظمه مأخوذاً عن مؤلفات اليونان وكتبهم فإن قسطاً منه مأخوذ ولا شك عن مصادر إيرانية وهندية وسريانية. ومن أراد التفصيل فليراجع الفهرست (طبعة مصر صفحة ٣٤٠ وما بعدها) وفيه أسماء المترجمين الذين ترجموا إلى العربية من اللغات المختلفة ومنهم ابن القفيع وكثير من آل نوبخت الذين نقلوا إلى العربية كثيراً من الكتب الفارسية.

ويجدر بنا أن نشير في هذا المقام إلى أن كثيراً من هذه الكتب التي عبرت عن الفارسية الساسانية كان أصلها يونانياً ترجمت إلى الفارسية في عهد الساسانيين ثم قام بتعريبها الإيرانيون أنفسهم؛ ومن هذه الكتب كتب في المنطق<sup>(١)</sup> والطب

(١) توجد نسخة نادرة من كتاب المنطق لابن القفيع في مكتبة الإمام الرضا بمشهد (خراسان) ويرجح أن تكون نسخة فريدة وقد نسخت عنها في الـدة الأخيرة بضع نسخ بأجازة المكتبة المذكورة.

## طَبِيقَةُ الرِّسَالَةِ

تقدم اليوم

# تولستوى

ترجمت من القلم الشوامخ في أدب هذه الدنيا قديمه وجديته

للأستاذ محمود الخفيف

مؤلف أحد عمالي، وأبرامام لتكولون

تولستوى: أوفى دراسة في المربية حياة هذا الفنان العظيم، وهذا الفيلسوف الحر الذي تأثر به الشرق والغرب.

تولستوى: تقرأ حياته كأنك تصاحبه، تفصيل دقيق لشخصيته، وتحليل عميق لفلسفته، وتلخيص واف تفصيصه وكتبه جميعاً مع عرض آراء النقاد فيها

٤٣٢ صفحة كبيرة: طبع جميل على ورق أبيض. مزين بنحو ٢٠ صورة ثمنه ٤٠ قرشاً عند البريد: يطلب من إدارة مجلة الرسالة ومن المكتبات الشهيرة